

الحجّ ودوره المهم في حياة الإنسان



عندما نريد استعراض بعض معطيات الحجّ إلى بيت الله الحرام ينبغي لنا أن ننظر إليه كمجموعة كاملة أوّلاً، ثمّ نلاحظ المعطيات التفصيلية لكلّ منسك منسك.

ويمكننا أن نذكر - هنا - أهم هذه المعطيات بصورة نقاط هي:

١ - تعميق الارتباط بالـ: بالتركيز على ذكر الله المتواصل في أيام الحج... فهي الأيام التي يردد الحاج فيها كثيراً ذكر الله، ويحس بالرابة بينه وبين الله إحساساً عميقاً. وهذا الترديد المركز سوف يترك أثراً على حياة الحاج العامّة ليرتبط في كل آن بالله تعالى يلهج بذكره، ويستشعر عظمته عند كل عمل يقوم به.

2 - الشعور بالعمل في سبيل الله: فالإنسان الحاج في أيام الحج متفرغ لهذه الناحية... قد أسلم نفسه وحياته بكل لحظاتها تعلق بأمره فيأتمر، وبنهاه فينتهي، كل لحظة من هذه الأيام تُصرف في سبيل الله وقربة إليه. فهو إذن يتدرّب على أن يصوغ حياته كلّها وفق هدّى الله وأوامره، ويبتعد عن كلّ ما يصرفه عن العمل في سبيل الله. قال الصادق (ع): «إذا أردت الحج فجرّد قلبك عزّ وجلّ» - من قبل عزمك - من كلّ شاغل وحاجب، وفوض أمرك كلّها إلى خالقك، وتوكّل عليه في جميع ما يظهر من حرکاتك وسكناتك، وسلّم لقضائه وحكمه وقدره، ودع الدنيا والراحة»[1]، بمثل هذا التجريد القلبي والتسليم يدخل الحاج أيام الحج، وبمثله يخرج ليستقبل الحياة.

ولهذا فإن الحج إشعاعاً على عمل الإنسان بعد الحج، وفي المحاسن عن عبد الله الحال رفعه قال: «لا يزال على الحاج نور الحج ما لم يذنب» [2]. وقد وصف الحج بأسمه فرار إلى الله. فمن أبي جعفر (ع) في قوله تعالى: (فَفَرِّ وَا إِلَى إِنْ يَ لَكُمْ مِنْهُ زَدِيرٌ مُبَرِّينْ) (الذاريات/50). قال: «حج وا إلى الله» [3].

3 - التضحية في سبيل الله: إذ أنّ الحجّ غالباً ما يرافقه بذل الجهد الكبير خصوصاً إذ كان الحاج يقصده من أماكن بعيدة، ولكنّ الحاج يبذل هذه الجهود مربياً نفسه على أساس أنّ في هذا البذل ربحاً لأنّه بذل «في طريق الجنة» على حد تعبير الرواية [4]، وهذا البذل سيترك أثره بilarib على نفس الحاج ليستخرم الحاج في كلّ مجال يريد الله أن يكون فيه الإنسان العامل حتى ولو تطلب ذلك الجهد الكبير. فعن الإمام الصادق (ع): «مَنْ اتَّخَذَ حِمْلًا لِلْحَجَّ كَانَ كَمَنْ ارْتَبَطَ فِرْسًا» في سبيل الله.

4 - الغفران والتوبة: فإنّ الحجّ فرصة كبرى للغفوة، وجوّ مفعوم بطلب التوبة والاستغفار والرجوع إلى الصراط المستقيم.

وقد روى في ثواب الأعمال عن ابن حازم قال: «قلت لأبي عبد الله (ع) ما يصنع الله بالحجّ؟ قال: مغفور لهم لا أستثنى فيه». وعن الصادق (ع): «في سؤال موسى (ع) جبرئيل (ع) ما لمن حجّ البيت بنية صادقة ونفقة طيبة؟ قال: فرجع إلى الله عزّ وجلّ فأوحى إليه: قل له أجعله في الرفيق الأعلى مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً».

وفي الرواية عن النبي ﷺ (ص) قال رسول الله (ص): «للحاج والمعتمر إحدى ثلات خصال: إما يُقال له: قد غفر لك ما مضى، وإما أن يُقال له: قد غفر لك ما مضى فاستأنف العمل، وإما أن يُقال له: قد حفظت في أهلك وولدك وهي أحسنهن».

وواضح ما لجوء التوبة من تأثير على رسوخها في النفس والتزام النفس بمقتضياتها.

5 - تمثّل التاريخ الإسلامي المشرق: حيث يعيش الحاج منطلق الدعوة الإسلامية للدول، ويمر بخطواتها وأحداثها الكبرى لتبقى مرتبطة في أعماقه تشده إليها وتدفعه لاستعادة أمجادها وبطولاتها وحمل أمانتها في كلّ عصر.

6 - الشعور بعظمة الإسلام: إنّ من يعيش عملية الحج يدرك حساً الدور العالمي العظيم الذي يستطيع الإسلام القيام به فيتأصل في نفسه الشعور بعظمة الإسلام. ويمكننا أن نقول إنّ هذا هو ما يشير إليه وصف الحجّ بأسمه (علم الإسلام) حيث يقول أمير المؤمنين (ع): «وجعله سبّانه وتعالى للإسلام علماء».

7 - الشعور بالوحدة والأخوة مع الحجاج الذين لا تجمعهم لغة واحدة ولا تقاليد ولا حدود ولا مستوى ولا لون، وإنّما تجمعهم العقيدة. هذا يركّز الوحدة العقائدية التي يجب أن يحمل لواءها كلّ مسلم. منطلق واحد لكلّ الحجاج، ومسير واحد، وهدف واحد هو التضحية في سبيل الله تعالى.

8 - الفرصة المفتونة: فالحج أكبر فرصة تُتاح كي تلتقي فيها كلّ أجنحة العالم الإسلامي؛ فتتقارب مستوياتها الثقافية، ويتعرّف كلّ جناح على مشاكل الأجنحة الأخرى، وتعقد المحادثات والمداولات بينهم، فالحج أكبر مؤتمر إسلامي عام.

كما أنّ الحجّ فرصة مفتونة جدّاً للتوعية المسلمين على إسلامهم وزرّاطمه وقوانينه وفضح شبّهات أعدائهم ومخططاتهم العامّة.

وهكذا نجد بعد هذا أنّ الحجّ:

دورة تدريبية كبرى للبشرية لتدريبها على العمل بأوامر الله، والخلق بأخلاقه، والتصديق بكلمته، والسير على منهج الأنبيائه، وإحراز الأرباح في متجر عبادته.

يقول الإمام أمير المؤمنين (ع) في نهج البلاغة، ص 45: «وَفَرَضَ عَلَيْكُمْ حَجَّ بِيَتِهِ الْحَرَامِ، الَّذِي جَعَلَهُ قِبْلَةً لِلأَنَامِ، يَرْدُونَهُ وَرُودَ الْأَنْعَامِ، وَيَا لَهُوَنَ إِلَيْهِ وَلُوهَ الْحَمَامِ، جَعَلَهُ سَبْحَانَهُ عَلَمَةً لِتَوَاضُعِهِ، وَإِذْنَاهُمْ لِعَزَّتِهِ».

واختار من خلقه سمعاً أجابوا إليه دعوته، وصدقوا كلمته، ووقفوا موقفاً أنبيائه، وتشبهوا بملائكته المطيفين بعرشه، يحرزون الأرباح في متجرب عبادته، ويتبادرون عنده موعداً مفترته. - جعله سبحانه للإسلام عالماً، وللعائذين حرماً. فرض حجّه، وأوجب حفته، وكتب علىكم وفادة ته، فقال سبحانه: (ولهم عالمي الناس حجّ البدية مـن استطاع إلـيـه سـبـيلاً وـمـن كـفـرـ فـإـنـ غـنـيـ عـنـ العـالـمـينـ) (آل عمران / 97).

وتتميز هذه الدورة التدريبية الكبرى بميزات فريدة، فهي:

أولاً - دورة عالمية تشارك فيها كل الشعوب.

ثانياً - تتناول أهم القضايا في حياة الإنسان وسيرته الحضارية فتركزها.

ثالثاً - دورة يقوم بها الناس بإرادتهم و اختيارهم بأداء شعائر خطّ ط لها تخطيطاً دقيقاً.

رابعاً - تشارك في إنجاحها الدوافع النفسية والذكريات التاريخية المتمثّلة بالأمكنة المقدّسة، والزمان المقدّس لأنّها تقع في الشهر الحرام.

وما أن يتم الناس القيام بشؤون هذه الدورة حتى يعلن العيد... عيد الانتصار على كل نوازع الظلم، والفوز بكل محقّقات الكمال.

والامر الملحوظ بوضوح في الأعياد الإسلامية أنّها تأتي بعد دورة، إما تربية كعدي الفطر والأضحى أو حياتية كبرى كعيد الغدير؛ لتأكيد الفرحة البشرية الصحيحة بالانتصار على الشهوات والشيطان، وبقطع مرحلة مهمّة من الحياد وبده مرحلة أخرى منها تشكّل تطوارئ لها لتنير مشاعر المسلمين جميعاً للاتصال الدائم المجموعي باه، وذلك لما فيها من تشريع للصلوات الواجبة والمستحبة وما إلى ذلك من موحيات.

النظرة التفصيلية:

أمّا إذا أقيمت على الحجّ نظرة تفصيلية تتناول واجباته ومحرماته وشرائطه فيمكننا أن نسير معه عموماً على النحو التالي:

1 - الإحرام:

روايات في الإحرام:

روى الكليني بإسناده عن جابر بن أبي جعفر (ع) قال: «أحرم موسى من رملة مصر، قال: ومر بصفائح الروحاء محاماً يقود ناقة بخطام من ليف عليه عباءتان قطوانيتان، يلبّي وتجبيه الجبال» [5] وروى الصدوق إنّه وجب الإحرام لعلة الحرم.

وفي العلل وعيون الأخبار عن الرضا (ع) قال: «إِنَّمَا أُمْرُوا بِالْحِرَام لِيَخْشُوا قَبْلَ دُخُولِهِ حِرَمًا وَأَمْنَهُ، وَلَذِلِّا يَلْهُوا وَيَشْتَغِلُوا بِشَيْءٍ مِّنْ أُمُورِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا وَلَذِّهَا، وَيَكُونُوا جَادِينَ فِيمَا هُمْ فِيهِ قَاصِدُونَ نَحْوَهُ مَقْبَلِينَ عَلَيْهِ بِكُلِّيَّتِهِمْ، مَعَ مَا فِيهِ مِنَ الْتَّعْظِيمِ عَزَّوْجَلٌ وَلَبِيَّتِهِ، وَالتَّذْلِيلُ لِأَنْفُسِهِمْ عَنْ قَصْدِهِمْ إِلَى عَزَّوْجَلٍ، وَوَفَادِهِمْ إِلَيْهِ رَاجِينَ ثَوَابَهُ رَاهِبِينَ مِنْ عَقَابِهِ، مَاضِينَ نَحْوَهُ، مَقْبَلِينَ إِلَيْهِ بِالذَّلِّ وَالْاسْتِكَانَةِ وَالْخُضُوعِ».

على ضوء من هذه الروايات الشريفة وغيرها وبملاحظة روح العملية وشرائعتها ومستحباتها يمكن القول بأنَّ الإحرام يوحي:

أ - بالإخلاص لله تعالى والخشوع له غاية الخشوع، ورفض كل المطلقات الوهمية، ونزع كلٌ هو بها تماماً كما ينزع الإنسان ملابسه، وغسل النفس عن كل دنس معنوي، كما يغتسل الإنسان للإحرام والتلبس بالحسناوات والصالحات كما يلبس الإنسان ثوبه الإحرام الطاهر، كلٌ هذا يجري باختيار الإنسان وتدريباً له على أن يكون كذلك في كل حالات حياته.

ب - بالرجوع إلى الفطرة ورفض المقايس الوهمية التي تفصل بين أبناء الإنسانية. ويبدو ذلك بوضوح عندما يلبس الجميع ثوبين بهيأة واحدة فتتمثل لهم حقيقة التساوي بين الأفراد من الوجهة المادية ويبدأ التسابق في المجال المعنوي، ويتأكد هذا عندما نلاحظ اشتراط أن لا يكون اللباس مخيطاً، وأن لا تلبس المرأة الزينة.

ج - بتذكر حالات الموقف العظيم يوم القيمة حيث يخرج الناس إلى الله (وَبَرَزُوا لِللهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) (إبراهيم/48) وهذا ما يوحي له شبه الثوبين بالكفاف.

د - بالشعور بعظمة الله عزمه التي أنعم الله بها على الإنسانية بتعريفها بالواقع الذي يمثله هذا الحرم المقدس، فقد يحيى لمن يمثله من الواقع.

لعله بكلٍ هذا وغيره كان الإحرام سُذّْةً كبرى يفعلها الأنبياء فتزدهر خشوعاً وخصوصاً في محراب الله تعالى.

2 - التلبية:

بعض الروايات فيها:

روى الكليني بإسناده عن الحلببي قال - سأله لـمَ جعلت التلبية؟ فقال: «إِنَّمَا عَزَّوْجَلٌ أَوْحَى إِلَيْهِ إِبْرَاهِيمَ أَنَّ: (وَأَذْنَنْ فِي النَّاسِ بِالْحَاجَةِ يَأْتِيَ تُوكَ رِجَالًا وَعَالَمَ كُلَّ مَاهِرٍ يَأْتِيَ تَرَيْنَ مِنْ كُلِّ فَجَّ عَمَيقٍ). فَنَادَى فَأُجِيبَ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ يَلْبَّونَ» [6].

روى بإسناده عن معاوية بن عمارة عن أبي عبد الله (ع) قال: «التلبية لبيك اللَّهُمَّ لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إنَّ الحمد والعزيمة لك والملك، لا شريك لك لبيك ذا المعارج، لبيك - و قال في آخره - وأعلم أنتَ لابدَ من التلبيات الأربع في أول الكلام وهي الفريضة، وهي التوحيد وبها لبيك المرسلون» [7].

وروى الصدوق عن سليمان بن جعفر قال: «سألت أبا الحسن (ع) عن التلبية وعلتها، فقال: إنَّ الناس إذا أحرموا ناداهم الله تعالى ذكره، فقال: يا عبادي وإمامي لأُحرِّ منكم على النَّارِ كما أحرمتكم لي، فقولهم لبيك اللَّهُمَّ لبيك إجا به الله عزَّوْجلٌ على ندائهم لهم» [8].

ورُوِيَ عن عاصم بن حميد قال: سمعت أبا عبداً يقول: «إنَّ رسولَ اللهِ لما انتهى إلى البيداء حيث الميل قربت له ناقة فركبها، فلما انبعثت به لبَّى بالأربع... ثمَّ قال: هاهنا يخسف بالأختاب» [9].

ورُوِيَ عن الإمام الباقر (ع) قال: «قال أمير المؤمنين (ع) ما من مهلٍ يهلك بالتلبية إِلَّا أهلاً من عن يمينه من شيء إلى مقطع التراب، ومن عن يساره إلى مقطع التراب، وقال له المَلَكان: أبشر يا عبد الله وما يبشرُكَ إِلَّا بالجنة» [10].

ورُوِيَ عنه (ع) قال: قال رسول الله (ص): «ما من حاجٍ يضحي مليباً حتى تزول الشمس إِلَّا غابت ذنوبه معها».

وأكثر الروايات تؤكّد أنَّ التلبية تعبدُ عن استجابة بشريّة كبرى لنداء تاريخي عظيم طلب من إبراهيم شيخ الموحدين أن يعلنه في الأرض، وأُعطي وعداً بأن يستجيب له المؤمنون.

إنَّ المسلم إذ يلقي ليشعر:

أ - بأذنه أهل لأن يكون في عداد أولئك الذين أجابوا دعوة إبراهيم (ع) التاريخية، مما يبعثه لأن ينظر لارتباطه بالإسلام كمهمة كبرى أُلقيت تاريخياً على عاتق هذه الأُمم، وعليها أن تحمل هذه الأمانة بجدارة.

ب - بأذنه يرتبط بحركة التوحيد الخالص الذي ينزعه الله تعالى عن كل سخافات أهل الكتاب، وكل مفتريات المشركين بكل ما يعنيه هذا الارتباط من تحكيم التوحيد في كل شؤون الحياة.

ج - بأذنه عليه أن يستجيب لكل نداء إصلاحي حقيقي (الآذين يسْتَهْمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَأْتِيَهُمْ بِعُونَ أَسْنَهُ) (الزمر/ 18) فيلبي قبل كل شيء نداء الإسلام للعمل الصالح، ثم يتبع سبيل المؤمنين والقادة.

د - بأذنه - وهو يلبي - ينسجم مع الكون كله الذي يلبي معه نداء الله (أَئْتَهَا طَوْءًا أَوْ كَرْهًا قَاتَلَتَا أَتَيْنَاهَا طَائِعِينَ) (فصلت/ 11).

ومن هنا تركّز الروايات أنَّ الجبال وما حواليه تردد تكبيره، وأذنه إذا انفصل عن مسيرة التلبية في قول أو عمل؛ فقد أصبح نشازاً في بناء الكون. ويتأكد هذا المعنى عندما تردد أصوات تلبية الحجيج في البيداء.

ه - بأذنه سيغفر له فيعود طاهراً من الذنب، ولذا فعليه أن يُحاذر من تفويت فرصة الطهارة هذه.

3 - محظيات الإحرام:

قال تعالى: (لَيَأْبُلُونَ كُمْ إِلَّا بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّبَدِ تَنَاهَاهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ) (المائدة/ 94)، وقال تعالى: (فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقٌ وَلَا جِدَالٌ فِي الْحَجَّ) (البقرة/ 197).

بعض الروايات في هذا الصدد:

عن الإمام الصادق (ع) في تفسير الآية الكريمة المتقدمة: «حشرَ عليهم الصيد من كلٍّ وجه حتى دنا منهم ليبلون به»[11].

ومنها عن الإمام الصادق (ع) قال: «إنَّ المحرم إذا تزوج وهو محرم فرق بينهما، ثمَّ لا يتعاودان أبداً»[12].

ومنها عن الإمام الباقر (ع): «لا ينبغي للمحرم أن يأكل شيئاً فيه زعفران، ولا يطعم شيئاً من الطيب»[13]. وعن الصادق (ع) في هذا الصدد «اتقِ المفاخرة، وعليك بوع يحجزك عن معاishi إلَّا»[14].

والملحوظ: في هذه المحرمات أزيد على المحرمات الاعتيادية من جهة وتركز التنفر من تلك المحرمات الاعتيادية من جهة أخرى.

وباستقرارنا لبعض مشاعر المسلم وما يتربّه هذا التحرير في نفسه نلاحظ:

1 - التربية الأصيلة لعنصر مراقبة النفس: فبعد أن يدخل الإنسان المسلم في جو الإحرام يحسُّ بأذنه صار تحت حماية الله ومرافقته الأشد، أو أذنه قد دخل دورة تدريبية خاصة عليه فيها أن يتتبّه ويكون واعياً لـ«لذلا» يقوم بعمل من هذه الأعمال المحرّمة - وبعضها أمر يعتاده ويعيش معه في أوقاته العادلة - فيطلب إليه أن لا يقتل همام البدن، وأن لا يشم الطيب، وأن لا ينظر في المرأة، وأن لا يتدهن، وأن لا يلمس المرأة، وأن لا يقطع شعرة من بدنه، وهكذا باقي المحرمات الأخرى. وكلَّ هذا يحتاج إلى مراقبة دقيقة تبقى ذكرها مذكرة النفس بلزوم الدقة والوعي في كل سلوك يسلكه الحاج بعد ذلك.

2 - التربية الأصيلة لعنصر الإرادة: وهنا يحرم الجنس والصيد - وهو في متناول الأيدي - لتمتنع إرادتهم في مقدار استجابتها لأوامر الله عز وجل، وسيطرتها على النوازع والغرائز، ولি�شعروا مع ذلك بعظمة نعم الله عز وجل فيشكروه شُكراً يتناسب مع ما رسمه لهم.

وتبدو - أكثر ما تبدو - هذه التربية للإرادة في تحريم لمس المرأة فضلاً عن تحريم الجماع، وكذلك تحريم العقد عليها، وكذلك تبدو واضحة في مسألة كشف الرأس وعدم التطليل بشيء وتحمل ذلك في سبيل الله، إذ له معطيات إرادية كبيرة في الإنسان.

3 - الزهد: بالتمتع الدنيوية والشعور بالتحرر من ربيقتها خصوصاً إذا كان الإنسان في سبيل تحقيق أوامر الله تعالى.

4 - التدريب العملي على الكلام الحسن والمنطقية في الحديث وتعظيم وجه الله تعالى وحُرماته... والموضوعية. وهو جانب مهم جدّاً. فمع أنَّ الكذب شيء حرام في الحالات الاعتيادية، والجدال وغيره أمر مرفوض عموماً، إلا أنَّه هنا يتتأكد رفض هذه الأمور مع جعل أنواع من الجزاء عليها للتأكيد على لزوم نفيها من حياة المسلم. هذا إلى جانب الحكم الخاصة في كل محرم.

4 - الطواف بالبيت:

قال تعالى: (وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلْمَسْكَنِ وَأَمْنًا) (آل عمران/96)، وقال تعالى: (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلْمَسْكَنِ لَهُ ذِي بَيْتَ كَعَةَ) (آل عمران/125).

بعض الروايات في ذلك:

١ - الكليني بإسناده إلى معاوية بن عمار عن الصادق (ع): «إذا دخلت المسجد الحرام فادخله حافياً على السكينة والوقار والخشوع، وقال: مَنْ دخله بخشوع غفرَ لِهِ إِنْ شاءَ إِنْ. قلت ما الخشوع؟ قال السكينة، لا تدخل بتكبر، فإذا انتهيت إلى باب المسجد فقم وقل: (السلام عليك أَيُّهَا النَّبِيُّ) ورحمة الله وبركته، بسم الله وبه ومن الله، وما شاء الله والسلام على أنبياء الله ورسله، والسلام على رسول الله (ص) والسلام على إبراهيم خليل الله والحمد لله رب العالمين)، فإذا دخلت المسجد فارفع يديك واستقبل البيت وقل: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسألك في مقامي هذا في أوّل مناسكي أن تقبل توتي وأن تتجاوز عن خطئي، وتضع عني وزري، الحمد للذي بلغني بيته الحرام، اللَّهُمَّ إِنِّي أَشهدُ أَنَّ هذَا بيتَكَ الْحَرَامَ الَّذِي جعلَتَه مثابةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَمبارِكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ، اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، وَالْبَلَدُ بِلَدُكَ، وَالْبَيْتُ بِيَتِكَ، جئْتُ أَطْلَبُ رحْمَتَكَ وَأَوْمَطْ طَاعَتَكَ، مطْبِعًا لأُمْرِكَ، راضِيًا بِقَدْرِكَ، أَسألكَ مَسْأَلَةَ المضطَرِّ إِلَيْكَ، الْخَائِفُ لِعَوْبَتِكَ، اللَّهُمَّ افتحْ لِي أَبْوَابَ رحْمَتِكَ وَاسْتَعْمَلْنِي بِطَاعَتِكَ وَمَرْضَا تَكَ»[15].

٢ - يظهر من بعض الروايات إن جبرئيل هو أوّل من بنى البيت، وأن الملائكة هي أوّل من طاف بالبيت. وهكذا كان الطواف حوله سُنة الأنبياء وأولهم آدم (ع) لكن المعمر الأساسي بعد ذلك كان هو إبراهيم وابنه إسماعيل، وفي رواية أخرى إن الملائكة يُنادي لها بيت في السماء يُسمى الضراح بأراء العرش فهي تطوف به، وإن هذا البيت بناء آدم بأراء آدم ذلك[16].

٣ - وعن الرضا (ع) - في علة الطواف - إن تعالي قال للملائكة: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَرْجِعُ إِلَيْهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ) (البقرة/ 30)، «فَرَدَّ وَا عَلَى إِنْ فَنَدُوا فَلَادُوا بِالْعَرْشِ وَاسْتَغْفَرُوا، فَأَحَبَ إِنْ أَنْ يَتَبَعَّدُ الْعِبَادُ بِمَثَلِ ذَلِكَ»[17].

٤ - وعن أبي جعفر (ع): «إذا دخلت المسجد الحرام وحاذيت الحجر الأسود فقل: (أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، آمنت بما وکفرت بالطاغوت وباللات والعزى، وبعبادة الشيطان، وبعبدا كل نـد يُدعى من دون الله). ثم ادن من الحجر واستلمه بيمنيك، ثم قل: (بسم الله وبه وأكـر، اللـهـمـ أـمـانتـيـ أـدـيـتـهاـ، وـمـيـثـاقـيـ تـعـاهـدـهـ لـتـشـهـدـ لـيـ بـالـموـافـةـ)»[18].

٥ - وعلل الإمام الصادق (عليه السلام) وضع الحجر في الركن الذي هو فيه قائلاً: «لعلة الميثاق... وأما القبلة والاستلام فلعلة العهد تجديداً لذلك العهد والميثاق»[19].

وبمراجعة الروايات الواردة في الطواف، وكذلك المشاعر التي يشعر بها الحاج الوعي نجد أن الطواف واستسلام الحجر يمثّلان أرقى حالات:

أ - التسامي الإنساني وذلك لأن من الواضح أن الملائكة في التصور الإسلامي يمثلون الموجودات الظاهرة تماماً، العابدة تماماً. والإنسان الطائف يشعر - وهو يطوف - بأنّه يقلّد الملائكة الطائفين حول (الضراح) وهو البيت الذي يقوم في السماء بإزاره هذا البيت أو حول (العرش) وهو مطاف الكون كله. فما أروع إكرام الله للإنسان، وما أروع شعور الإنسان بهذه الكراهة الإلهية. خصوصاً وإن بعض الروايات تؤكد أن مسألة طواف الملائكة جاء بعد سؤالها الذي ذكره القرآن (أَتَرْجِعُ إِلَيْهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا) (البقرة/ 30) ثم ندمها، فطوا فيها حول العرش استغفار.

ب - التعلق بعالم الغيب: تبعاً لذلك التسامي وتأكيداً لنزع الإنسان من التعلق بالمادة لا غير إلى التعلق بعالم الغيب عن طريق موجود محسوس جعل رمزاً لعالم الغيب، ومحلّ للاتصال بينه وبين عالم الشهادة، وإن من الواضح أن الإيمان بالغيب يشكّل أحد أهم مقومات الشخصية المسلمة (يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقْرِيمُونَ الصَّلَاةَ) (البقرة/ 3).

ج - الغفران المؤكّد: وهذه الحالة الفريدة التي يوجدها الطواف أمر لا يمكن أن يُوصف، بل هو حالة نفسية يدركها من يعيشها... موقف خاشع كلّ الخشوع تطّلّ الرحمة الإلهية والعنابة الخاصة، ثم ميثاق يمنحه الإنسان للحجر الأسود تلك القطعة التي نزلت من الجنّة فتجسّدت أمام الإنسان تذكره

بفطرته وبالميثاق الذي أعطاه بها ﷺ بالإيمان والتسليم... فبا لاستلام والتقبيل يتأكد العهد ويتجدد^د كما يُعبد^د رب الإمام (ع). إن^د كل^د عناصر الموقف تشتراك في تركيز التوبة وتعزيزها خصوصاً إذا تصوّر الحاج^د أنّه يسلك صراط الملائكة في توبتها وإنابتها إلى الله.

د - الاتباع لسُنّة الأنبياء: وإذا قيل سُنّة الأنبياء فلا يعني ذلك إلّا الأسلوب الوحيد الذي وضعه الله لتكامل الإنسان، وهذا الاتباع الحسي والشعوري لابد^د وأن يركّز الاتباع الحياتي بمجموع ما في الحياة من نشاط، ويتم تركيز هذا الشعور عند الطائف بأمور: منها شعوره وهو يطوف حول الكعبة بأذنه يطأ موطن الأنبياء جميعاً والأئمّة والصالحين عبر التاريخ... يضع قدماً حيث وضعوا، ويتدّجه حيث اتجهوا، ومنها الأدعية التي يستحب له قراءتها آنذاك وقبله حيث استحب^د له التسليم على النبي^ص قبل كل^د شيء، ثم^د التسليم على جميع الأنبياء مع التركيز على سلام خاص بإبراهيم (ع) رمز الحنيفة الصافية، التي لم تلوثها مبتدعات اليهود والنصارى. ومنها هذا المقام الذي يصلّي عنده ركعتي الطواف، وحجر إسماعيل الذي يدخله بعد، فيصلّي^د ويذبحه ذلك.

هـ - تركيز التوحيد وتعظيمه باعتبار البيت الواحد رمزاً للواحد الفهار، وباعتبار أن^د الأرض كلّها مكلّفة بالطواف حول هذا المركز الواحد الذي خصّه الله بذلك ليعمّق الإيمان الخالص به تعالى، ويبدو هذا واضحـاً من خلال ما يدعوه به الطائف عند الطواف من أدعية.

و - العمل الجاد في سبيل نشر أضواء الإسلام على العالم: وذلك يمكن أن يستفاد من الروايات التي تجعل الكعبة منار الإسلام وعلمه. فالطائف حول الكعبة جندي يطوف حول العلم ويتمسك به ويعمل على رفعه وتقدّمه، كما يظهر من الروايات التي تشبه الطائفين بالملائكة المطيفين بعرش الله، ومن ملاحظة وجه الشبه وهو كون العرش محور حركة الكون، والكعبة محور حركة الأرض ينطلق المسلم ليحقق^د هذا المعنى في الأرض، فينزل أمله في جعل الكعبة محور حركة الأرض إلى واقع التطبيق.

ويرى محمد^د أسد (ليو بولد فايس) المستشرق النمساوي المعروف في كتابه (في الطريق إلى مكة) أن^د الكعبة هي رمز الوحدة الإلهية، وإن^د حركة الحاج^د هي التعبير الرمزي عن نشاط الإنسان. وهنا تنسجم المشاعر مع الألفاظ حيث يدعوه الطائف (اللّٰهُمَّ افتح لي أبواب رحمتك، واستعملني بطاحك).

5 - السعي بين الصفا والمروءة: قال تعالى: (إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ فَلَا يَرْبِطَ أَوْ أَعْتَدَ مَرْأَةً فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَرْطَبُوا وَفَرِّبُوهُمَا وَمَنْ تَطَّوَّعَ عَزِيزًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلَيْهِمْ) (البقرة/ 158). وعن أبي بصير قال: سمعت أبا عبد الله^ع يقول: «ما من بقعة أحب^د إلى الله من السعي لأنّه يذلل^د فيها كل^د جبار».

وهناك رواية في (العلل) تربط السعي بمعنى أُمّ إسماعيل بين الصفا والمروءة لجلب الماء لإسماعيل، وأخرى تربطه بمعنى إبراهيم لطرد إبليس. ومن المناسب التذكير بأن^د الجبلين كانوا موضعين لبعض الأصنام وقد تأثر البعض من السعي لذلك فنزلت (فَلَا جُنَاحَ).

وروى بعض الأصحاب أنّه قال: «كنت في ظهر أبي الحسن موسى (ع) على الصفا والمروءة وهو لا يزيد على حرفين: اللّٰهُمَّ إِذْ^دي أَسْأَلُكَ حُسْنَ الظُّنْنِ^د بك على كل^د حال، وصدق النّيّة في التوكل عليك».

وإذا لاحظنا هذا تأكّد في أنفّنا أن^د السعي بين الصفا والمروءة يعني فيما يعني:

أ - ذلة الجبارين، ونزع صفة التجبر والتكبر عن الإنسان لأنّهما رداء^د ولا يمكن أن يلبسهما غيره، وبهذا تفيض كل^د معايني الاستسلام^د الجبار استسلاماً كاملاً. فيصحو الإنسان على واقعه، ويتجاوز كل^د الخيالات الباطلة التي تدور في ذهنه نتيجة للتربيات الجاهلية الخداعية. وما أروع أن نجد المتحكمين يُطلب منهم أن يسعوا، بل ويرملوا في بعض المواقع مكسوّين بالرأس لبسين بردي الإحرام فقط ليشعروا^د حساً بعدم الفرق بينهم وبين غيرهم وبأنّهم عبيد خاضعون له تعالى.

ب - السعي ضمن حدود الله: وهذا المعنى يتوجه إليه الحاج بوضوح، فيدرك أن الفعالية والنشاط ورفض الكسل والجمود وال الخمول، والتوكّل على الله أمر أصيل في الإسلام؛ ولكن على أن يكون ذلك السعي ضمن الحدود التي وضعها الله على ضوء من المصالح البشرية التي هو أعلم بها.

ج - الارتباط أكثر فأكثر بتلك العائلة المقدسة، عائلة إبراهيم (ع) التي شكلت حلقة الوصل الحسي بينه وبين النبي الأكرم (ص) والذي يؤكّد التلاحم الهدفي بينهما.

فالسعي بين الصفا والمروءة تقليد واعٍ لسعي بينهما قامت به هاجر لتجد الماء لابنها إسماعيل جد النبي (ص)، فهو شعور بالآلام هذه العائلة وأمالها، وهو تحرك لتحرّكها ووقف لوقفها. وكان الجميع عائلة واحدة أبوها إبراهيم (ع) (ملائكة أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّا كُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ) (الحج / 78) وهي الأُمّة التي دعا لها إبراهيم وإسماعيل وهما يرفعان قواعد الكعبة. يقول تعالى في ذلك: (وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلْمُلْكَاسِ وَأَمْنًا وَأَنْجَدُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصْلَّى وَعَهْدَنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهَرَ رَأْبَيْتَهُ لِلطَّائِفَيْنَ وَالْعَمَّا كَفَيْنَ وَالرُّكْعَعَ السُّجُودَ * وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيْ أَجْعَلْ هَذَا بَلَادًا آمِنًا وَأَرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الدَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِرَبِّهِ وَالْأَيَّوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَّتَ عُهْدُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرَهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبَئْسَ الْمَصِيرُ * وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقْبَلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَالِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنَ لَكَ وَمَنْ ذُرَّ يَسْتَدِيْنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرْزَنَا مَذَاسِكَنَّا وَتَرْبُ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَرْتَ التَّوَّابَ الرَّحِيمَ * رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتَلَوُ عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُنَزِّكُهُمْ إِنَّكَ أَرْتَ الْعَزِيزَ الْحَكِيمَ). (البقرة / 129-125).

فيستجيب الله هذا الدعاء ويبعث النبي الأكرم (ص) ويقول تعالى في القرآن الكريم: (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأَمْمَيْنَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتَلَوُ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّكُهُمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْحِكْمَةَ). (الجمعة / 2).

والملحوظ في كل هذه الآيات أنّها تطوف حول محور أصيل، وهو التسلیم لله تعالى. ولذا تحدّثت هذه العائلة كل المشاق تسلیماً، فكل مسلم عاش حياة السلم كان من ضمن هذه العائلة المقدسة الموحدة... عائلة خليل الله.

6 - الوقوف بعرفة والمزدلفة: قال تعالى: (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَرْبَتُهُ فَصَلَّ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرْفَاتٍ فَادْكُرُوا إِنَّ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامَ وَادْكُرُوهُ كَمَا هَدَّا كُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الصَّالِيْنَ) (البقرة / 198).

1 - ورد أنّه يوم دعاء ومسألة [20].

2 - وجاء عنهم (ع) أنّه «وتعود بما من الشيطان الرجيم فان الشيطان لن يذهلك في موطن قط أحب إليه من أن يذهلك في ذلك الموطن، واياك ان تشتعل بالنظر إلى الناس، وأقبل قبل قبّل نفسلك»[21].

3 - توالت الأخبار في أدعيّة عرفة ومنها رواية دعاء الحسين (ع) يوم عرفة.

4 - وجاء في خبر عن النبي (ص) أنّ علة إيجاب الوقوف بعرفات بعد الظهر، والانصراف بعد المغرب، هي كون الوقت الأوّل يناسب وقت عصيان آدم والآخر وقت التوبة عليه[22].

5 - وعن معاوية بن عمار عن أبي عبد الله (ع) قال: «أصبح على طهر بعد ما نصلى الفجر فقف إن شئت قرباً من الجبل، وإن شئت حيث شئت، فإذا وقفت فاحمد الله عزوجل، وأثن عليه، واذكر من آلائه وبلايه ما قدرت عليه، وصل على النبي (ص) ثم ليكن من قولك: (اللهُم رب المشعر الحرام فك رقبتي من النار، وأوسع عليَّ من رزقك الحال)» [23].

إلى ما هناك من الأخبار الكثيرة في هذا المصدّد. وإذا أردنا أن نتحدّث عن بعض المشاعر التي يشعر بها الحاج في هذا الموقف الجليل استطعنا أن نذكر منها ما يلي:

أ - فرصة الدُّعاء: فقد رأينا بعض الأخبار التي تؤكّد على الدُّعاء، كما أن الروايات الواردة فيما يقرأ آنذاك كثيرة، وكلّها جاءت تشبع رغبة الإنسان في الدُّعاء والتضرع في هذا الموقف الرائع. ولنحاول هنا التعرّف إلى دور الدُّعاء في حياة الإنسان، وإنّما نشير إليه باعتباره عاملاً مهماً في نفسه لتركيز عبودية الإنسان لربّه خصوصاً، بل ولتركيز كل المفاهيم والأخلاق الإسلامية إذا كانت له صفات عالية كالذي ورد عن الأئمّة (ع) من ثروة دعائية لا تُقدّر بثمن فإنّها كانت أدعيّة ركّزت العقيدة الصحيحة، والمفاهيم الحقّة والأخلاق الإسلامية في المسلم، ولنختّر بهذه المناسبة أحد أروع الأدعية وهو دعاء الحسين (ع) الوارد في يوم عرفة ونقرأه لنجد الدليل الواضح على ذلك. وهذه فقرات منه:

(اللهُم إني أرغب إليك، وأشهد بالربوبية لك، مثراً بأنك ربّي وإليك مردي، ابتدأتنى بذِعْمتك قبل أن أكون شيئاً مذكوراً... فابتعدت خلقي من مني يمني، وأسكنتني في طُلّمات ثلاث بين لحم ودم وجلد، لم تشهدني خلقي، ولم تجعل لي شيئاً من أمري، ثم أخرجتني للذى سبق لي من الهدى... حتى إذا اكتملت فطرتي واعتدلت مرتى (قوّتى) أوجبت على حجّتك بأن أهمنتني معرفتك...). (اللهُم اجعلنى أخشاك كأنّي أراك، وأسعدنى بتقواك، ولا تشقنى بمعصيتك، وأخر لي في قضايك، وبارك لي في قدرك، حتى لا أُحبّ تعجّيل ما أخرت، ولا تأخير ما عجلت، اللهُم اجعل غنائي في نفسي، واليقين في قلبي، والإخلاص في عملي، والنور في بصري، والبصيرة في ديني، ومتعمّن بجوارحي، واجعل سمعي وبصري الوارثَين مني، وانصرني على من ظلمني.)

ب - تذكّر القيامة: وتجسمها بمثل هذا الموقف الرهيب حيث تملئ الصحراء بالحجيج في ثيابهم البيض التي تشبه الأكفان، تصهرهم أشعة الشمس، والوجوه كلّها تعنوا للحيّ القيوم... إن الدُّعاء ليكتسب له معنىًّا خاصاً في مثل هذا الجو المفعّم بالخشوع.

ج - التوبة: فقد حدّثنا بعض الروايات أن هذا الوقت يشكّل بدُعديه وقت عصيان آدم وقت توبته، وهي التجربة البشرية الأولى التي مرّ بها آدم فندم عليها وتاب الله عليه، وهذا الجو الذي أوحى به الروايات وهو القيامة وهو الدُّعاء كلّها تشرّك لتركيز مفعول التوبة في النفس، لتكون توبة نصوحاً.

د - الحياة الخالصة: وهذا المعنى يحسّ به المسلم تماماً حين يجد نفسه وقد ترك كل مشاغله ليعيش مطهراً نفسه من أدرانها ومعاهداً الله على أن يحول حياته بعد الموقف كلّها حياة مرضية له تعالى.

هذا إلى ما هنالك من المشاعر، ومنها شعور الإنسان بعظمة الإسلام الذي يستطيع أن يجمع القلوب والأجسام على صعيد واحد وتذوّق حينذاك كل التفرقة الوهمية، وشعوره بأنّ هؤلاء جمِيعاً أينما وجدوا وكانوا هم أخوة له يقفون موقفه، ويدعون بدعائه، ويستهذفون هدفه، وغير ذلك.

7 - رمي الجمار: روى المدقوق عن النبي (ص) والأئمّة (ع) إنّما أُمر برمي الجمار لأنّ إبليس اللعين كان يتراءى لإبراهيم في موضع الجمار فيرجمه إبراهيم (ع) فجرت بذلك السنة [24].

قال: وقال (ع): الحاج إذا رمى خرج من ذنبه [25]. وروى الكليني عن أبي عبد الله (ع) قال: قلت: ما

أقول إذا رميته؟ قال: «كبدّر مع كلّ حصاة».

وأهم ما يbedo للإنسان في هذا المنسك الرائع هو هذا الرمي المجموعي لرموز الشيطان واحداً بعد الآخر تعبيراً حسياً عن لزوم نفي الشرّ من الأرض بعد اتّباع طريق الخير، والطواف حول رمز الخير الكعبة. والجميل في الأمر أنّ المسلم يشعر إذ يطوف حول مركز واحد، ويرمي رموزاً للشرّ ثلاثة، بأنّ طريقاً واحداً في حين أنّ طرقي الشيطان متعدّدة.

وباستحباب التكبير له عند كلّ رمية يشترك اللفظ في الموقف ليؤكّد في شعور الإنسان عهده ۚ تعالى بأن يرمي الشرّ والشيطان ولا يتبعهما، ويبيقى وفيما لعقيدته بأنّ ۚ خالق كلّ شيء وفوق كلّ قوّة.

8 - الذبح: وهو جانب مهم من مناسك الحجّ، ويؤكّد على الوجه الاجتماعي للعبادات. إذ أنّ الذبح في كلّ عام يوفّر للفقراء مقداراً كبيراً من الطعام - وإن لم يعمل المسلمين على الاستفادة منه بشكل أحسن - على أنّ الحاجّ إذ يقوم بهذا المنسك يتتأكد في نفسه عنصر مواساة الفقراء وإطعامهم، وتخليص المجتمع من مأسى الجوع. وهنا يتجلّى أيضاً معنى التضحية العملية التي قام بها إبراهيم (ع) بتقديم ولده العظيم إسماعيل. وتتوارد خواطر التسلّيم المطلّق لأمر الله، وتتردّد صرخة إسماعيل المسلم (ياماً أَبَتْ افْعَلَ مَا تُؤْمِنُ) (الصافات/ 102) مما يُوجّد شعوراً لدى المسلمين بقيمة الأوامر الإلهية، ولزوم التسلّيم لها حتى لو لم تعلم الحكمة فيها، لأنّها قد صدرت من لدن حكيم خبير.

9 - الحلق: في الرواية عن أبي عبد الله (ع) أذنه سُئل: كيف صار الحلق على الصورة واجباً دون من قد حجّ؟

قال: «ليصير بذلك موسوماً بسمة الآمنين، ألا تسمع قول الله عزّ وجلّ: (لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ إِنْ آمَدَينَ مُحَاجِّقَيْنَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَاصِرَيْنَ لَا تَخَافُونَ) (الفتح/ 27)»[26]، وكأنّ الحلق أصبح علامة للMuslimين تميّزهم عن غيرهم. ومن هنا يحلق الحاج لينضموا إلى الرعيل المؤمن المسلم عبر التاريخ.

وهكذا :

فقد رأينا كيف أنّ الحجّ بنظرية إجمالية، وبنظرية تفصيلية يشكّل أروع الأساليب التربوية التي قام بها الإسلام لتهذيب النفوس وتأكيد سيرها على خطّ التكامل.

[1]- سفينـة الـبحـار، عـباس القـمي، جـ1، صـ211.

[2]- المصدر السابق نفسه.

[3]- المصدر السابق نفسه.

[4]- المصدر السابق نفسه، صـ210.

[5] - وسائل الشيعة، الحرّ العايلي، ج9، ص3.

[6] - المصدر السابق نفسه، ص47.

[7] - المصدر نفسه، ص48.

[8] - المصدر السابق نفسه.

[9] - المصدر نفسه، ص49.

[10] - المصدر نفسه، ص50.

[11] - المصدر السابق نفسه، ص76.

[12] - المصدر نفسه، ص91.

[13] - المصدر السابق نفسه، ص93.

[14] - المصدر نفسه، ص321.

[15] - المصدر السابق نفسه، ص325.

[16] - المصدر نفسه، ص386.

[17] - المصدر نفسه، ص388.

[18] - المصدر نفسه، ص401.

[19] - المصدر نفسه، ص403.

[20]- وسائل الشيعة، الحرّ العايلي، ج 15، ص 10.

[21]- المصدر نفسه، ج 10، ص 15-16.

[22]- المصدر نفسه، ص 24.

[23]- المصدر نفسه، ص 45.

[24]- المصدر نفسه، ص 69.

[25]- المصدر نفسه، ج 10، ص 68.

[26]- المصدر نفسه، ج 10، ص 188.